

بسم الله والحمد والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه،
أما بعد، فقد وقفت على قصيدة رائقة لأبي بكر بن دُرَيْد (ت 321) أراها تنطبق تمام الانطباق
على صنيع الصعافقة وكبيرهم مع السلفيين الشرفاء —علماء وطلبة علم— من البهتان والافتراءات؛

حيث قال:

أرى الناس قد أغروا ببعي وريبة وعي إذا ما ميّر الناس عاقل
وقد لزموا معنى الخلاف فكُلُّهُمِإلى نحو ما عاب الخليفة مائل
إذا ما رأوا خيراً رموه بظنّة وإن عاينوا شراً فكُلُّ مُناضل
وليس امرؤ منهم بناج من الأذولا فيهم عن زلة متغافل
وإن عاينوا حبراً أدبياً مهذباً حسيباً يقولوا إنه لمخاتل
وإن كان ذا ذهن رموه بدعة وسموه زنديقاً وفيه يُجادل
وإن كان ذا صمت يقولون صورة ممثّلة بالعي بل هو جاهل
وإن كان ذا شرّ فويل لأمهلهما عنه يحكي من تضمّ المحافل
وإن كان ذا أصل يقولون إثمًا يفاخر بالموتى وما هو زائل
وإن كان مجهولاً فذلك عندهم كبيض رمال ليس يُعرف عامل
وإن كان ذا مال يقولون ماهمن السحت قد رابى وبئس الماكيل
وإن كان ذا فقر فقد ذلّ بينهم محقيراً مهيناً تذرّيه الأراذل
وإن قنع المسكين قالوا لقلّة وشحّة نفس قد حوتها الأنامل
وإن هو لم يقنع يقولون إثمًا يطالب من لم يعطه ويُقاتل
وإن يكتسب مالا يقولوا بهيمة أتاها من المقدور حظّ ونائل
وإن جاد قالوا مُسرفٌ ومُبذّر وإن لم يجد قالوا شحيحٌ وباخل
وإن صاحب الغلمان قالوا لريبة وإن أجملوا في اللفظ قالوا مُباذل
وإن هويّ النسوان سموه فاجرًا وإن عفّ قالوا ذاك حُنثى وباطل
وإن تاب قالوا لم يتب منه عادة ولكن لإفلاسٍ وما ثمّ حاصل
وإن حجّ قالوا ليس لله حجّه وذلك رياء أنتجتّه المحافل
وإن كان بالشطرنج والنرد لاعبًا ولاعب ذا الآداب قالوا مُداخل

وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ الْمَذَاهِبِ نَابِرًا وَكَانَ خَفِيفَ الرُّوحِ قَالُوا مُثَاقِلُ
وَإِنْ كَانَ مِغْرَامًا يَقُولُونَ أَهْوَجُونَ إِنْ كَانَ ذَا ثَبَتٍ يَقُولُونَ بَاطِلُ
وَإِنْ يَعْتَلِلُ يَوْمًا يَقُولُوا عَقُوبَةُ لَشَرِّ الَّذِي يَأْتِي وَمَا هُوَ فَاعِلُ
وَإِنْ مَاتَ قَالُوا لَمْ يَمُتْ حَتَّى أَنْفِهِلِمَا هُوَ مِنْ شَرِّ الْمَاكِيلِ آكِلُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا جَا حِدٌ وَمُعَانِدُونَ حَسَدٍ قَدْ بَانَ فِيهِ التَّخَاثُلُ
فَلَا تَتَرَكَّنْ حَقًّا لِحَيْفَةِ قَائِلِيهَا الَّذِي تَخْشَى وَتَحْذَرُ حَاصِلُ

قلت: كأن ابن دُرَيْدٍ عرف خصال الصعافقة وخبرها، فأنشأ فيهم هذه الأبيات، فخلاصة الأبيات أنهم قوم بُهت، يرمون مخالفهم بأفطع النقائص، ولا يقبلون منه حقًا ولا معروفًا، فأبي شيمة في مخالفهم يقبلونها عيبًا وشينًا بغير تقوى ولا ورع، فهم - خاصة سفهائهم فَوَازَ وأشكاله من رويضة النت - واقعون في هذه الكبيرة الخسيصة، وهي: "بهتان المؤمنين".

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

وأخرج مسلم (2589) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ».

وعليه فإن الصعافقة قوم بُهت لا يشكُّ في هذا عالم أو طالب علم درس أحوالهم وعایشها، وهذه الخصلة - وهي البهتان - خصلة مذمومة اشتهر بها اليهود، كما أخرج البخاري (3938) من حديث مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسٌ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَيْلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟، وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟، قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ أَنفَاءً» قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدُ» قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهتُ فَاسْأَلُهُمْ عَنِّي، قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بِنِ سَلَامٍ فِيكُمْ؟» قَالُوا: حَيْرُنَا وَابْنُ حَيْرِنَا، وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بِنِ سَلَامٍ» قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، «فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ»، فَقَالُوا: مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ".

قلت: والبهتان عاقبته وخيمة على صاحبه في الدنيا، وهو من أصحاب الوعيد في الآخرة!

وكتب

أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان

ليلة الأحد 19 ذو الحجة 1441